بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، وعلى خاتمهم المجتبى .

أما بعد . .

فما لا ريب فيه أن كل المشفقين على مسار الأمة ، وكل القوى والتيارات الفكرية والسياسية والاجتماعية ، متفقون على أن أمتنا تعيش فى أزمة حقيقية ، تعددت أعراضها ، وتنوعت آثارها ، وإن اختلفوا فى تعيين جوهر الأزمة : ما هو ؟

أهى أزمة إيمان وأخلاق ، كما يُصوِّرها دعاة الدين والفضيلة ؟

أم هى أزمة فكر ومعرفة كما يصوِّرها رجال الفكر والثقافة ؟

أم هى أزمة حرية سياسية وديمقراطية ، كما تصوِّرها القوى المعارضة للنظم الحاكمة ؟

أم هى أزمة علم وتكنولوچيا ، كما يصوِّرها كثير من دعاة الإصلاح ، ومن رجال الفكر أنفسهم ؟

لقد ردد كثيرون مع شوقى قوله :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا !

ولكن الدكتور زكى نجيب محمود علق على ذلك بقوله :

لولا خشيتى سوء التأويل لعارضت شاعرنا ، لأقول له : وإنما الأمم فى يومنا

التقنيّات ما اطردت وتغلغلت ، فإن هم انعدمت علومهم وصناعتهم وتقنيّاتهم ، تخلفوا إلى حيث لا أمل ولا رجاء ، اللّهم إلا إذا فهمنا الأخلاق بمعنى يجعل منها أن أعرف كيف يُضغط على الأزرار ومتى .

وآخرون قالوا : إنما الأمم الأفكار والثقافة .

وغيرهم قالوا : إنما الأمم الحرية لوطنها ، والحقوق لشعبها .

والأولى من ذلك أن ندع وحدانية التعليل والتفسير ، إلى الشمول والتعدد .

إن « التفسير الواحدى » للتاريخ وللواقع لم يعد مقبولاً ، لأنه يبصر الحقيقة من زاوية واحدة ، ويغفل زواياها الأخرى ، وهو يبسّط الأمور المعقدة والمتشابكة .

إن نهضة الأمم تؤثر فيها الثقافة ، كما تؤثر فيها السياسة والاقتصاد والتشريع والتربية وغيرها .

ومهما يكن الاختلاف فى تحديد جوهر الأزمة ، فأحسب أنه لا يخالف أحد فى أهمية دور الثقافة فيها ، وخصوصاً الجانب الفكرى والأدبى والفنى منها . وذلك لما لها من تأثير فى الأخلاق والسلوك ، ومن تأثير فى السياسة والحكم ، وتأثير فى توجهات الشعوب إلى التقدم أو التخلف ، إلى العلم والعمل ، أو إلى الكلام والجدل .

فلو صحَّت ثقافة أمة واستقامت ، وتكاملت وتوازنت وسلمت من عوامل التشويه والتحريف - كما هو الأصل فى ثقافتنا - لكان لها أثرها البالغ فى صحة توجه الأمة واستقامتها وتكاملها وتوازنها . وإذا حدث العكس كانت النتيجة عكسية كذلك ، لأن الثمرة من جنس الشجرة . وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً ﴾ (١)

---

(١) الأعراف : ٥٨

أما قضية « الأصالة والمعاصرة » فى ثقافتنا فهى قضية قديمة جديدة .

فمنذ كنا طلاباً صغاراً ، ونحن نقرأ ونسمع ونتابع أنباء صراع فكرى أدبى محتدم بين تيّارين متعارضين يعبّر عن أحدهما بـ « القديم » ، ويعبّر عن الآخر بـ « الجديد » .

ومما قرأناه من آثار هذه الحرب التى تسلّ فيها الألسنة لا الأسنّة ، وتشحذ فيها الأقلام لا السيوف : كتاب « تحت راية القرآن » أو « المعركة بين القديم والجديد » لأديب العربية والإسلام مصطفى صادق الرافعى ، الذى شنّ فيه الغارة على الدكتور طه حسين وكتابه عن « الشعر الجاهلى » .

وفيه سخر الرافعى من هؤلاء « المجددين » الذين يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر !

ومما قرأناه شعراً من آثار هذه المعركة قول أمير الشعراء أحمد شوقى فى قصيدته الشهيرة عن « الأزهر » مشيراً إلى الغلاة من دعاة التجديد ، وأعداء القديم :

دع عنك قول عصابة مفتونة ... يجدون كلّ قديمِ أمرٍ منكرا !

ولو استطاعوا فى المجامع أنكروا ... مَن مات من آبائهم أو عُمّرا !

من كلّ ساعٍ فى القديم وهدمِهِ ... وإذا تقدم للبناية قصّرا !

وأتى الحضارة بالصناعة رثّةً ... والعلم نزرا ، والبيان مثرثرا !

كما قرأنا قول « إقبال » عن هؤلاء المجددين : إن جديدهم هو قديم أوروبا . كما ذكّر هؤلاء بأن الكعبة لا تجدد ، ولا تستجلب لها حجارة من الغرب !

واستمرت هذه المعركة بين التيارين المتضادين ، ظاهرة حيناً ، وخفية فى معظم الأحيان ، يشتعل أوارها كلما ظهر كتاب بالغ الجرأة ، أو نشرت مقالة كذلك ، وتخبو جذوتها كلما مضت الحياة على وتيرتها المعتادة .

كان التيار الأول يمثل القديم الموروث فى ثباته وشموخه ، وكان التيار الآخر يمثل الجديد الوافد فى بريقه وإغرائه .

وكان يمثل الدفاع عن التيار الأول : رجال الأزهر ودار العلوم والقضاء الشرعى ، ومَن دار فى فلكهم فى مصر ، وأمثالهم فى البلاد العربية والإسلامية .

وكان يمثل التيار الآخر : خريجو المدارس والكليات الأجنبية فى الداخل ، وخريجو الجامعات الغربية والوافدون من الخارج ، ومَن تتلمذ عليهم ، وحطب فى حبلهم .

ولا ريب أنه وجد غلاة فى كلا الفريقين . ففى مقابل الذين يريدون تجديد الكعبة والشمس والقمر ، وجد الجامدون على كل قديم ، الذين يريدون أن يوقفوا حركة الفلك ، وسير التاريخ ، شعارهم : ليس فى الإمكان أبدع مما كان ! وضاع الوسط بينهما .

وقد لخص الموقف علاّمة الشام محمد كردعلى فى بحثه « القديم والحديث » بقوله : ها قد أصبحنا بعد هذا النزاع بين علوم الدين وعلوم الدنيا ، والأمة شطران : شطر منّا إلى البلاهة والغباوة ، وشطر إلى الحمق والنفرة . وبعبارة أخرى : نسينا القديم ، ولم نتعلم الجديد !

كانت عناوين النزاع بين التيارين تختلف من فترة لأخرى ، ولكن المضمون فى النهاية واحد . إلا أن التيار الأول يحمل فى الغالب عنواناً منفّراً مستنكراً ، على حين يحمل التيار الآخر عنواناً جذاباً مغرياً .

تجد ذلك بيّناً واضحاً فى العناوين التى استخدمت فى التعبير عن هذا الصراع : القديم والجديد ، التقليد والتجديد ، المحافظة والتحديث ، الجمود والتحرر ، الرجعية والتقدمية .

حتى انتهى أخيراً إلى العنوان السائد اليوم ، الذى يحمل ثنائية مقبولة إذا أعطيت الكلمة حقها من الفهم والتحليل ، وهى ثنائية التكامل ، لا ثنائية

التضاد والتقابل ، وهو « الأصالة والمعاصرة » ، وفى وقت ما عبر عنه بـ « الأصالة والتجديد » . وقد قدمت فيه دراسات ، ونظمت ندوات وحلقات [١] .

وبحثنا هذا يتحدث عن « ثقافتنا العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة » .

هكذا حدده لى الإخوة الزملاء فى كلية « الإنسانيات والعلوم الاجتماعية » بجامعة قطر ، الذين خططوا لهذه الندوة الفكرية العلمية ، التى تدور بحوثها حول هذا الموضوع المهم : « الثقافة العربية : الواقع وآفاق المستقبل » .

ولا ريب أن قضية « الثقافة العربية » قضية بالغة الأهمية ، ولا غرو أن عقدت حولها عدة ندوات ، ومؤتمرات فى أكثر من بلد ، تبحث فى جانب أو أكثر من جوانبها المتعددة .

ويبدو أن الإخوة الزملاء أرادوا إرضائى أو إغرائى ، فجعلوا عنوان بحثى على وجه الخصوص : الثقافة العربية الإسلامية . . إلخ . ولم يكتفوا بوصف العربية وحده ، فهل يمكن أن تكون ثقافتنا عربية غير إسلامية ؟

هذا ما ينبغى أن نبحثه هنا : ماهية ثقافتنا : أهى عربية أم إسلامية ؟ أم هما معاً ؟

وما مكونات هذه الثقافة وخصائصها ؟

وما معنى هاتين الكلمتين اللتين اشتهرتا على الألسنة والأقلام ، ورددهما الناس هنا وهناك ، دون تحديد بيّن لمفهومهما : الأصالة والمعاصرة ؟ وما المقصود بهما فى نظرنا نحن المؤمنين برسالة الإسلام ، وخلود دعوته ،

---

(١) من ذلك : الندوة التى نظمها « مركز دراسات الوحدة العربية » عن « التراث وتحديات العصر فى الوطن العربى » ، أو « الأصالة والمعاصرة » بالقاهرة فى سبتمبر سنة ١٩٨٤ م ، ونشرت بحوثها ومناقشاتها فى مجلد ضخم .

وبقاء أمته ، واستمرار كتابه - بلسانه العربى المبين - محفوظاً ، كما وعد الله : ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقّاً ﴾ (١) .

هذا ما نرجو الله - تباركت أسماؤه - أن يوفقنا بفضله إلى إلقاء شعاع من ضوء ، محاولة لإزاحة الضباب والغبش عنه ، بقدر جهدنا الكليل ، وزادنا القليل . وسنقسم دراستنا هذه إلى أربعة فصول وخاتمة .

﴿ وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٢)

الدوحة : رمضان سنة ١٤١٣ هـ (مارس ١٩٩٣ م) .

يوسف القرضاوى

* * *

(١) الكهف : ٩٨ (٢) هود : ٨٨

obeikandl.com